# ابحث عن وليد مسعود

بقلم
جبرا ابراهيم جبرا

« آه (*) لو ان للذاكرة أكسيرا يعيد اليها كل ما حدث في سلسله الزمني ، واقعة واقعة ، وبجسده الفاظا تنهال على الورق !»

لعل من حقي الان ان ألجأ الى عبارة وليد مسعود هذه التي كثيرا ما كررها في اشهره الاخيرة . نحن العوبة ذكرياتنا ، مهما قاومنا . خلاصاتها ، وضحاياها معا . تسيطر علينا ، تحلّي المرارة، تراوغنا ، تذهب انفسنا حسرات ، عن حق او غير حق . كيف نمسك لهذه الاحلام المعكوسة ، هذه الاحلام التي تجمد الماضي وتطلقه معا ، هذه الصور المتناثرة احيانا كالغيوم فوق سهوب الذهن، المضغوطة احيانا كالماسات الثمينة بين تلافيف النفس ؟ في الشباب نخجل من الاستغراق في الذكريات ، لان الحاضر والمستقبل اهم واضخم . ولكننا ، مع تقدم السنين ، يقل فينا الخجل من الانزلاق نحو الذكريات .. لا لان الحاضر والمستقبل يفقدان الاهمية والضخامة ـ ولو ان ذلك ايضا ممكن ـ بل لاننا نكاد لا نتحمل منهما الكثير الا بطلب من المدد من تجاربنا العتيقة ـ تلك التجارب ، سارّها واليمها ، التي تشتد في الذهن وتشد ابهاما ، في آن واحد . وهات يا صبر، وهاتي يا مثابرة ، وهاتي يا كلمات لتبيانها بشيء من الوضوح ، لاقحامها في اسطر مفهومة ..

.. أسطر مفهومة ؟ كل سطر بسنة ، أو بشهر ، أو على الاقل بيوم . كيف يمكن لسطر كهذا ان يكون مفهوما ، وكل كلمة فيه مشدودة الى اوتاد متباعدة في فيافي النفس الفسيحة ، الملأى باوتاد خيام ضربت ورفعت بالمئات ؟

كانت معرفتي بوليد مسعود لا تنأى عمقا في الزمن فحسب ، او في المكان فحسب : كانت تنأى عمقا في ذلك البعد الانساني المتفرع المتشابك بعشرات من حيوات الرجال والنساء .كان هذا أشد عنفا مني في ردود فعله تجاه هؤلاء الرجال والنساء : كانت علاقاته تحتدم وتبرد بتلقائية فطر عليها .. وابقى انا اداري تلك العلاقات بما كان يسميه عبقريتي الخاصة في منع التناقضات من الاصطدام ، بل حتى في دمج التناقضات دون اذى لاحد ، او على الاقل للاخرين . كثيرا ما اتهمني بانني غير موال لاحد ، ان كنت استطيع الحفاظ على ولائي لكل هؤلاء الاناس ، وهم الذين ينجذبون الى المرء ويندفعون عنه بقوى مغناطيسية متضاربة . وابقى انا في الوسط ، والشعرة بيني وبين كل منهم لا تنقطع .

من المحتمل ان ذلك وهم من اوهامي . من المحتمل انني كنت امسك بيدي بخيوط علاقات وصداقات افلتت اطرافها البعيدة وتاهت ، رغم بقاء الاطراف القريبة بيدي .

غير انني كنت اتصرف كأنما الخيوط متصلة ، وكأنما الولاءات متبادلة ، رغم كل شيء . لا انكر انني كنت اصدم بين حين وآخر، اذ أجد الشخص الاخر يتصرف فجأة كأنه لم يعرفني قط .. كأننا لم نأكل خبزا وملحا معا ، او كأنني حملت له جفاء يصر على مقابلته بالجفاء . ولكن امثال هذا الشخص كانوا ، في تجربتي ، قلائل ، وعلى الارجح غير مهمين . اما ان ارى ذلك في رجل اعزه ـ فتلك كانت الخيبة المرة ، والجرح العميق . ومثل ذلك حدث لي مرة اومرتين مع وليد نفسه . وحملت منه الخيبة والجرح صامتا ، الى ان جاء اليّ ضاحكا ، معانقا ، مرة اخرى . كنت اغتفر له كل شيء ،حتى مقدرته على الجفوة الفجائية . اجد له تبريرات قد لا تخطر بباله هو ، بل قد يرفضها . ففي السنوات الاخيرة كنت ارقبه واخشى عليه : ارى خطوطا جديدة تتكاثر كل يوم حول عينيه ، حول فمه . عشرين سنة عرفته والتراب يتحوّل الى ذهب بين يديه . ورأيته وهو يرفض ذلك كله ، وشيء اشبه بالتصدّع يتبدّى في كيانه ، كأن تفاعلا كيماويا داخليا جعل يكشف عن نفسه في صوته ، في كلماته، في عينيه .

كان وليد يبحث دائما عن ذلك التوازن الذي تحدّث عنه طيلة حياته ، ولم يجده قط . كان يقول ان « التوازن » كلمة تقريبية، ولكنها تفي بالغرض قبل ان يخوض المرء في التفاصيل . في عالم من الرعب ، والقتل ، والجوع ، والكراهية ، كيف تجد توازنك الذهني، او النفسي ، او الجسدي ، او الاجتماعي ـ سمه ما شئت ـ دون ان تشعر بانك تقف من الانسانية على طرف بعيد ؟ كيف تكون انسانيا، وتتخطى المشاكل الانسانية ؟ التوازن بالطبع كان سرابا ، يغري ولكنه لا يخدع طويلا . ومع ذلك لم ييأس وليد . او انني رفضت الظن بان اليأس يستطيع الاخذ منه . كان يمر بأزمات عسيرة : يكفر ، يسد اذنيه ، يعلن سطوة الشر على الحياة ، ينال منه الغضب لايام متوالية. ولو وقف عند ذلك الحد ، لما كان في امره ما يستحق الذكر .يجلسون في المقاهي ويتكلمون كلاما كهذا . يلتقون في البيوت ، وينتهون الى مثل هذه النتيجة . وذلك كله امر عادي في هذه الايام . المهم هو ان وليد لم تكن تطول به الازمات الى حد تلك البلادة تجاه الحياة وتقلباتها التي ما هي الا وجه من وجوه اليأس المكتوم الذي

(*) من رواية قيد الكتابة .

يعيشه معظم الناس . والتفاؤل ، بالطبع ، كان يمكن هو ايضا ان يكون ضحلا وتافها كالتشاؤم . « التفاؤل بماذا بالضبط ؟ » الواقع ان تساؤلا كهذا لا يوقف وليد طويلا . للطلاب الجامعيين ان يتشاءموا ويتفاءلوا .. ان يشتموا ويغضبوا ، ويتصوروا ان ثمة بديلا رائعا يستطيعون تحقيقه . هذا من حقهم ، من واجبهم . اما وليد فقد مر بذلك منذ سنين بعيدة ، وانتهى منه ..

ماذا اذن بقي له ؟ التوازن . كيف ؟ على اية نقطة من نقاط الخط المتعرّج الرجراج يقيمه ، وعالمه زلق ، مقلقل ، في صعود وهبوط مستمرين يتخطيان العقل والمنطق ؟ كان يقول احيانا انه لو عاش في عصر مضى ، لربما استطاع ان يتحدث عن امكانية ايجاد التوازن في الفن .. في الدين .. في التوحد بالجمال مثلا ـ على طريقة بعض قدامى المتصوفين ـ التوحد بالجمال بعبادته . المبالغة في العبارة ، يقول ، تبدو مضحكة . اعبادة ، وهو لم يعرفها حتى في الدين ؟ ايحرق بخورا ؟ أيكتب قصائد لا يقرأها لاحد ، ويتلوها ساعات الفجر كالادعية ؟ ايعانق امرأة جميلة ، ويتحسسها ،ويتشهاها حتى لحظة القذف ، ويزعم انه عبدها ؟ وبعد ذلك ؟ ومع ذلك ، بعد التحدي والعنف ، بعد الصراخ والضرب والمغامرة بكل شيء ، فان الجمال ، في النهاية ، هو الاهم ، كان يقول . التأمل فيه ، كتأمل الصوفي في ذات الله . في وسط الضجيج ، صوت تحرير . في خضم المتناقضات ، تناغم خفي محسوس . وبين اطراف الجذب والدفع، نقطة ساكنة عميقة : عين العاصفة ، النشوة التي يعجز عنها الكلام في عالم من الهذر والخوف المقنع . « عندما رأيت لاول مرة ، وكنت في اول الشباب ، جماعة من الناس يتحدثون ، ثم يتلفتون حولهم مذعورين ويسألون : هل سمعنا احد ؟ اصابني الهلع . أهكذا نخاف ان يعرف الاخرون ماذا نقول ؟ ومع السنين ، تكرر انتلفت المذعور ، والسؤال انقلق ، الى ان اصبح امرا عاديا . اصبح الرعب جزءا من حياتنا ، نعايشه ، ونتحايل عليه ، كيفما اتفق ، واصبح الجزء الاكبر من تفكيرنا تفكير المتآمر .. تفكير الخائف .. تفكير المتقي شر الناس. تحت تأثير هذا الضرب من التفكير ، يطلبون اليك ان تبدع ، ان تلقي بلآلىء الاصالة لتبهر اعين الذين عشيت اعينهم منذ زمان . سأبحث عن عين العاصفة ، واخلص من هذا التفكير كله » . هذا ما قاله في احدى الصحف جوابا على سؤال احد الصحفيين اللجوجين ،قبل اختفائه ببضعة اشهر . وعندما الحّ عليه الصحفي بسؤال اخر اجاب: « ارجوك الا تحدثني عن الشجاعة . الشجاعة امر شخصي بحت ، قائم بين المرء ونفسه . اصبح الجهر سخفا لا يقنع أحدا ، بل لا يسمعه أحد ، كمن يضرب طبلا بين الطرشان . الشجاعة الوحيدة التي تستحق الممارسة هي مجابهة الموت بالعضل .. بالفعل العنيف، حيث يكون في الموت نفسه غلبة على الموت .. موت الفدائي مثلا . اما انتم ، فاسمحوا لي ان اقول لكم : انكم جميعا جبناء ، تضربون للحوت طبولكم وصفائحكم لعله يقذف من حلقه القمر » .

في الآونة الاخيرة كان عنفه في اشتداد ظاهر ، لم اشك قط في شهوته ونهمه للحياة والمستقبل . غير انني لحظت انه غدا اميل الى الصمت ازاء كلام الاخرين ، وجعلت احسّ أن البلوغ اليه ، الى جوهره وسريرته ، غدا امرا عسيرا : لقد جعل يمترس نفسه وراء جدار من الاسمنت ، كأنه يتمتع هناك بمعاقرة شراب سري غامض يرفض ان يشاركه فيه أحد .

خابرني وليد صباح يوم اختفائه . كنت في فراشي عندما دعيت الى التلفون ـ حوالي السادسة صباحا . « خير ؟ » قلت ، والنوم ما زال في عيني .

قال : « جواد ، أنا مسافر الان ، بسيارتي .»

ـ « الآن ؟ هكذا ، فجاة ؟»

ـ « نعم . فقلت يجب أن اودعك ، ولو انني آسف لانني ايقظتك مبكرا . »

ـ « ومتى تعود ؟ »

ـ « أعود ؟ لا ادري . ولكن أرجوك ان تهتم ببريدي . وصيت الخادم بان يسلمك رسائلي » .

اكثر من مرة فعل ذلك في السابق ، حين كان يطيل الغياب .اما هذه المرة ، فراح ولم يعد . وكان لاختفائه تلك الضجة التي لم اتوقعها قط . قال البعض انه هاجر الى كندا ، او استراليا . قيل انه قتل . قيل انه عاد الى فلسطين ، المهم انه اختفى . وفي الاشهر الستة الاخيرة اتعبتني شؤونه كثيرا . واضطررت الى الاجابة على الكثير من رسائله ، فضلا عن مئات الاسئلة التي طرحت حول اختفائه . ترك سيارته على قارعة الطريق الصحراوي الذاهب الى الاردن ، على بعد حوالي مائة كيلو متر غربي الرطبة ، ولم يترك كلمة تشير الى ما حدث له . ولكنه ، بحبه للمواقف اللغزية ، ترك شريطا داخل المسجلة ، في سيارته ، قال فيه اشياء كثيرة ، ولم يقل الشيء الوحيد الذي تحرّق الجميع الى معرفته : الى اين ذهب ؟

عندما راجت الشائعات بعد ذلك باسابيع بانه وجد مقتولا في لبنان ـ وجدت على السفح من ضهر البيدر جثة مشوّهة لم يستطع احد التعرف عليها ، ولكن البعض ذهب الى انها جثة وليد مسعود ـ شعرت ، بحدس ربما كان صادقا لطول ما عرفت وليد ، بانه فعلا قد مات . أخذت افكر به ميتا : رأيته يتجندل بين الصخور في احدى هاويات لبنان ، وبقيت اياما لا استطيع الا التفكير به . عشرون سنة من صداقة بيننا انتشر عقدها ، ورحت ابحث عن الحبات واحدة واحدة لعلني أجد مفتاحا لسر اختفائه على هذا النحو ..

لم يكن لديّ الا الذكريات ، واوراقه المكدسة ، المحشوة في اغلفة كبيرة ، وانني كلما فتحت غلافا منها أحسست كأن الزمن ينهال عليّ من كل صوب فأختنق تحت ركامه ، فأعيد الاوراق الى الغلاف ، لكي استعيد حرية تنفسي . « آه لو أن للذاكرة اكسيرا يعيد اليها كل ما حدث في تسلسله الزمني ، وافعة واقعة ، ويجسده الفاظا تنهال على الورق ! » .

ولكن لاعد الى الشريط الذي وجد في السيارة . وجدت المسجلة السوداء الصغيرة ، وفيها شريط كاسيت ، فضلا عن مسجلة اخرى مثبتة تحت راديو السيارة . كان في هذه شريط موسيقي عزف الى نهايته . اما المسجلة السوداء ، فكانت متصلة بميكروفون موثوق بسكان السيارة . وكان زرّ التسجيل مضغوطا . من الواضح ان وليد كان يسجل بصوته وهو يسوق ، قبل ان يحدث ما حدث .

عندما عزفنا الشريط الذي فيها ، وجدنا انه ينقل اولا الموسيقى التي كانت تصل الميكروفون من المسجلة الاخرى ، المثبتة. وهي متوالية الهار بسيكورد لهنري يورسل ( كان اقتناها في الآونة الاخيرة ويكثر من عزفها ). ثم يبدأ الكلام . ثم يكن كثير الوضوح دائما ، لانه كان مشوبا لا بالموسيقى فحسب ، بل بهدير السيارة ايضا . ولكن الكلام كان هناك ، مسترسلا ، متواترا .. انه صوت وليد نفسه ، دونما ريب ..

.. ادهشني الشريط . لسبب لا استطيع تحديده ، شعرت ان وليد اراد تضليلنا جميعا بهذا الشريط . أم انه أراد ، وللمرة الاخيرة ،ان يصارحنا جميعا ، ويضع اوراقه على الطاولة ؟ اين الوجه واين القناع ؟ اي الاثنين عرفت منه طيلة عشرين سنة طارت وكأنها لم تكن ؟ وحتى اذا اعترفنا بأن وليد كان تحت تأثير تجربة ما اليمة جدا ، بل بين فكي كآبة سوداء ، لا نعرف بعد بواعثها الحقيقية ، تجعل لكلامه سيولة الهذيان كضرب من آلية دفاعية يحاول ان ينقذ بها نفسه ، فان الشريط كان يحمل كلاما يجب وضعه في الحساب . لم يكن فيه ما قد يعتبر اشبه بافادة المتهم ،او برسالة،

« الى المحرر » يدافع بها رجل عن نفسه ضدّ طعن ما في مجلة او جريدة . ( على كل ، لم يكن وليد يوما ليفعل شيئا من هذا القبيل طيلة ايام حياته . كلما هاجمه احد أجابه بصمت ملؤه الاحتقار ). لقد تقصّد وليد ان يتخلى عن المنطق ـ على الاقل ظاهريا ـ ومن الصعب ان نعرف ما الذي بالضبط جعله يسجل كلاما كهذا على نفسه في ذلك اليوم بالذات ، يوم اختفائه .

مهما يكن ، فان أشارته اليّ انا حقيقية ، ومثلهما اشارته الى الاخرين . الاسماء ، على قلتها ، معروفة ـ فيما عدا اسماءاصدقاء طفولته في فلسطين ، وفيما عدا اسما واحدا ينتمي ، على الارجح، الى الفترة الاخيرة من حياته : شهد .من هي شهد ؟ لست ادري . لم حجب ذكرها عني هذه السنوات الطوال ، وكان يبدو انه يصارحني بكل خفاياه ؟ لست ادري .. ولكني سأحاول ان اكتشف من هي هذه العسلية التي اصرّ على التكتم بأمرها حتى في لحظاته الاخيرة .

لقد نقلت كلامه المسجل على الورق ، كما جاء ، سائلا ،متداخلا، لكي اقرأه وأعيد قراءته ، لكي اتقرّى تفاصيله ودقائقه ، لعلني استطيع ان اتحدث عن وليد حديثا يخلو من أوهامي القديمة . لعلني استدل على هوية شهد ، فتكون هي تتمة الطريق الى حقيقة صديقي الكبير وليد مسعود . هذا هو ما سجل على الشريط كما نقلته :

« كيس للكتب اخضر بلون الزيتون يمتلىء بالكتب والدفاتر والاقلام الرصاص والملونة ايام المدرسة يعلق بالعنق وينتفخ تحت الذراع على الخصر باسراره الطفلية كتابسير الابطال اسماء غريبة هرقل ويولسيس واخيل وفطرخلس وفريام ما صدر آنبيت وقد ولى الظلام هاربا فالشكر لله الاحد شكرا عظيما واجبا اخذت الكيس وافرغته من الكتب على عتبة الشباك ورحنا انا وسليمان وعبد نقفز في الحواكير الى اشجار الزيتون جداد انزيتون مستمر ونحن نلقط البقايا القليلة التائهة بين الاشواك والحجارة والتراب او على الاغصان العالية تهتزّ وتضطرب والاقدام تتشبث بدراية والعالم كله اشجار زيتون عارية ومثقلة يا ولد ابعدوا عن تلك الشجرة لم نصلها بعد نحن نصيّف فقط والغيوم البيضاء كالحملان انسارحة في حقول السماء الزرقاء آه جون كيتس ايها النجم الساطع ليتني مثلك ثابت ونحن اطفال عمري ثماني تسع سنوات لو كان لديّ مآل قال ابو ابراهيم بكل جدية لعلّمت هذا الولد على حسابي تأكل الارز مع قطعة من لحم والكاهن بلحيته انبيضاء الكبيرة المنتشرة على جبته السوداء اللامعة يخلع اسنانه المستعارة ليضعها في كوب من الماء ويغسلها امام الجميع ويختفي فمه تحت شاربه الكبير قلت لها لا اريد شاربا سأحلقه دائما قالت لو تجعل لك شاربا كخط أسود فوق شفتك العليا كأنه مرسوم بالفحم فتشبه ابطال السينما ولا سيما الانذال الوسيمين الذين يغنمون بالفلوس وشفاه انسماء ولكني أحبك بشارب وبدون شارب وهي غارقة في الكرسي الكبير ونهداها ككرتين من عاج وتنورتها حاسرة ملمومة حول خصرها وفخذاها يستقبلان حرارة النار اللاهبة على مهل في الموقد الاسود الكبير ايام كنا نذهب الى البحرونتلقى الريح العاصفة الجليدية وافراس الزبد تنبثق من اواسط البحر وتتراكض الى انساحل لتتلاشى على اقدامنا المكافحة في الرمل الطري الناعم البليل وشفتاها باردتان عاطرتان مرصعتان بالرذاذوخدي على شعرها الطائر وشعري يطير رغم اصابعها المغروزة فيه ونمد رأسينا من نافذة القطار الضاج الصافر الهادر عبر الاراضي الخضراء عدني هل تعدني بالا تكبر بالا تشيخ وانا اعدك بان ابقى كما تراني الان واسعة العينين كبيرة الفم وجسدك كالحشيش الاخضر اتمرغ فيه كما حلمت بك وانا اسمع الموسيقى في بهو المدرسة اراك جالسة بين اغصان محملة بأوراد ككتل من الثلج وقدمك تتدلى وتهتز شجرة زيتون لا لم تكن شجرة زيتون لا استطيع ان انسى اشجار الريسون والتربة الحمراء والكهوف الظليلة الباردة نأكل فيها التين والعنب تتدلى العناقيد الكبيرة من الكروم وتستلقي كالحيانى على الارض الحمراء وطنين النحل والدبابير قضينا النهار نحاول حرق المدبرة وهاجمتنا الدبابير ولدغتني وورم وجهي لماذا لم تفط وجهك بمنخل او عربان من اين لنا منخل في أنوادي وهم يتصايحون حولنا من جبل الى جبل حتى النساء يتخاطبن عبر الفضاءات الزرقاء بلا سلكي الهواء مريم مريا!!!!!م جيبي الغدا لابوي صرّة صغيرة فيها رغيف من خبز الطابون وبيضة مسلوقة وزيتون وخرشي خيار يضحك ويقول الدنيا مثل انخيارة ابي الذي قبل ان يموت كان ملقى على ارض الغرفة كسنديانة ضخمة اسقطتها الريح وكانت له حكايات عن البلوط وخبز البلوط ايام السفر برلك والمجاعة ولدت بعد المجاعة والطريق ترقص تتباعد بنا كنا في لوري والطريق البيضاء تنساب من خلال العبار تهرب مني والتلال تهرب والحجارة حجارة الكيلومترات التي تعلمت قراءتها بعد ان كبرت واستطعت ان أقرأ الرزنامة التي كتب عليها ١٩٢٦ اب ايلول نسرين ياسمين وريا حننت الى ريا ونفسك باعدت مزارك من أم انني كنت هاربا فالشكر لله الاحد من صوتها يديها اصابعها الصغيرة تنسج فماشة الليالي وتطبع القبلات وتكشف عن سرة كرصعة الخد في بطن املس كتلة من تلال الافق البعيد حيث لا ترى الا طيورا سوداء تسبح وتتلاشى هل الجنه هناك وراء السماء حيت تلتقي السماء والافق ولو بلغت ذلك الافق البنفسجي على الجبال الزرق لفتحت ثغرة في السماء ودخلت منها الجنه آه يا مسكين يا جاهل الى متى تبقى تحلم بأنعبور الى عوالم اخرى وما لديك الا هذا العالم القاسي العنيد عليك ان تقارعه ولا تخشاه تعلّمت ذلك في المدرسة واصابعي تعجز عن مسك القلم لشدة البرد فانفخ فيها وامسك بالقلم واكتب ولا تأتي الاسطر مستقيمة كما اريد ولا يسجل القلم كل الكلمات التي تتهاوى من دماغي وشفتيّ واكاد أراها تتبعثر على المنضدة وتتساقط حولي والتقطها من جديد واصابعي متجمدة والمعلمون يروحون ويجيئون واحذيتهم تنقر الارض العارية وينظرون من خلف رؤوسنا المطأطئة على الورق واقول للمعلم الدنيا برد فيبتسم ويقول شاب مثلك يشكو من البرد عيب ياشيخ اكتب اكتب فاكتب واكتب ونخرج الى الطريق البيضاء بالثلج سليمان وعبد ويوسف وبشارة وصانع وأولاد الحي كلهم وتصيبني كرة من الثلج هشة ناعمة على صدري واحفن الثلج واكوّره واضرب واصيبواحفن واكور والثلج بارد جدا اولا ثم لا أحسه باردا واشعر باندفء في اصابعي وكرات الثلج تتطاير بيننا تضرب الوجوه والظهور والجدران والثلج يخشخش تحت الاقدام وأدوس في حفر من ثلج مذابويتسرب الى رجليّ واشعر بالدفء والبرد معا وامي تصيح من الباب لا ادري علي من ربما عليّ والسماء زرقاء نظيفة والشمس بيضاء باردة آه على كوب من الشاي يا شهد اسمك غريب ولذيذ مثلك أكلك الحسك كالشهد انت رجلي المثالي منذ سنين الا تدري ام انك تتقصّد الهرب مني سأهرب منك انا أيضا بعد ان اوقعتني سأهرب لانني دائما اهرب اركض الى ان اقع على وجهي وانا آخذ وجهها القرير بين يديّ لانمعن في عينيها وانفها وفمها البارد الطيب لن اهرب بعد اليوم وفي اليوم التالي هربت وسافرت وارسلت اليّ بطاقة من بيروت اجبتها برسالة في سطرين او ثلاثة قال الله فليكن الحب فكان النعيم والجحيم واذا الواحد يشبه الاخر فاحب الله كليهما وهذا جوابي على سؤالك القديم لم الحب يملؤه الحزن كأنه بداية الفراق وجاءتني رسالتها الطويلة التقيت بابنك مروان ما اجمل عينيه وهما تلتمعان من خلال الكوفية الملتفة حول رأسه وقلت له خذوني معكم وعلموني ضرب النار يبدأ الحب وتتكرر البداية والنهاية في الافق البعيد حيث انسماء تنطبق على الارض في الايام الصاحية والشمس كنار منهمرة وانا ابحث عن ظلّ اريد ان أقرأ ان افكر ان ابكي لاحزان

اعرفها ولا اعرفها وكلها ساعرفها يوم يتم الفراق ويموت الاعزاء وتمتلىء البيوت بالضجيج مروان وفي الليل يتجاوب العواء والنباح من تل الى تل ومن واد لواد وانا مستلق على سطح الدير العتيق قرب الاجراس اعانق حجرا سقط عن عموده ما أجمل الاعمدة واقفة اومضطجعة وفيها صدوع الشموس وبتور الامطار شتاء بعد شتاء لقرون تلو قرون انها الموسيقى التي لا استطيع انتخلي عنها كالمدمن سرا لا يستطيع اطلاع احد على احلامه اللذيذة الماكرة الرهيبة وشهد اتمر بي في سيارتها وتعود لتخطف امني واطمئناني وتهدّد بانها لن تعيدهما اليّ الا اذا نقدتها الف كلمة تضعها في عبها بين نهديها انا الغنيّ واموالي الكلمات .

فلت الها خيه خيه  اسقيني شربة ميه
وانا رايح ومروّح  ومنقي درب القبليه
قالت ليا اشربواتهنى  يا ريتو صحه وهنيه

وانكلم بكل لغات الارض وبشارة يقول هذا كلام ابيك وحكاياته واشعاره ونحن مختبئان في شجرة اللوز الكبيرة المشرفة على الطريق الجديدة نقرش اللوز الاخضر الكبير باسنان تضرس احيانا للحموضة اللذيذة ومريم في الحاكورة تطعم الدجاج ثم تتلفت حولها وتشمر عن ردفيها الصغيرين وتقرفص قرب الجدار الى ان تسمع كركرتنا وتنهض مذعورة وتهرب كاحدى دجاجاتها وتاتيني ببيضة ما تزال حارة وتقول الان باضتها الدجاجة البيضاء اعرفها صديقة ذلك الديك الاحمر السمين الذي يروح ويغدو مختالا بين اناته وكانه يملك مزابل الدنيا كلها ولكنه على الاقل كديك ربابة ربة البيت ديك حسن الصوت ومريم تفاخره بصوتها القوي الحاد وتزعم انها تستطيع ان تصرخ فيسمعها الناس من على جبل خريطون ولكن جبل خريطون نادرا ما يكون فيه اناس ليسمعوها من جبل الفردوس العله الفردوس الذي آ آذكر تفاح المجانين الذي تحمله شجيرات صغيرة بين الصخور أحمر برّاقا صقيلا تستقر التفاحة في الكف كالجوهرة مغرية بنعومتها وحمرتها واخشى ان اذوقها والمجنون الذي رأيناه مغلولا في تلك الغرفة الحجرية المظلمة في دير مار جريس كم كان وديعا وكثيف الشعر واللحية ثم صار شرسا اهوج يصرخ وعاط الى أن انهارت قواه ومت خوفا منه العله أكل من تفاح المجانين الذي يملأ فراديس الدنيا حتى العربانة القديمة التي ركبناها ظهيرة يوم من ايام تموز في طرقات بغداد من الكرادة الى الوزيرية وكان في قربي منها والتفاح الاخضر في كيس الورق في حضنها برودة الجبال ونسمات الربيع ونحن نخشى ان يلتفت الينا العربنجي مع انه كان يعلم اننا نتفازل وراء ظهره وهو ينوش حصانيه المسكينين برفق وهل من يريد ان يستعجل الزمن او يختصر المسافات وعندنا تفاح يكفي لخمسين حواء .

فلت الها خيه خيه  اسقيني شربة ميه

ولكن ساهرة لا تعرف للخطيئة الاصلية معنى وعذريتها في ريعانها كوردة من ورود بغداد الحمراء الجنونية وعيناها الواسعتان تشعّان بخواطر محرقة كالنيران الجائعة في ليالي الجفاف الذي يبدو احيانا انه لن ينتهي مثلا في الرابعة صباحا عندما ينطلق اول صفير متردد من عصفور حيي في الحديقة ثم يعود الصفير مرة اخرى فاخرى ويتشجع البلبل وينوّع اغنيته قليلا وينضم اليه عصفور اخر فآخر الى ان تصدح اوركسترا العصافير من على مجاثمها في الاشجار التي اخذت تستفيق مع اول خيوط الفجر ما اكثر ما رات تلك الخيوط وهي تتحول من الاسمر الى الاشهب فالازرق فالبنفسجي وكانما الدنيا ستذيب همومها في مساحات الالوان الساطعة التي تسبق بزوغ القرص الاصفر الدامي ولكن ليس هذا ما اردت قوله هذا الذي خبرته آلاف المرات حتى ما عاد يدهشني وان كنت مهيأ للدهشة نفسها كانني كلما سمعت النغم نفسه عاودتني العواطف نفسها بحدتها العتيدة الزائلة الباقية كمياه النهر الجارية تتراكض بعيدا وهي ما زالت حول رجليّ المتدليتين وانا اطرطشها وهي تهز راسها لترفع الشعر الطويل عن عينها وتتلو Margaret are you grieving over goldengrove unleaving

انحزنين يا سهد على آجام الذهب وهي تنفض عنها اوراقها كما نضوت عنك ثيابك ورقة ورقة حتى الورقة الاخيرة والحزن يترقرق على وجهك ونهديك وبطنك وقولين لا هذا كثير مستحيل اتراني جميلة كشجرة هزت الريح عنها أوراقها والحب لها حزن كالمطر المنهمر والصباح غريب يرى من النافذة الكبيرة كصورة مجمدة على شاشة سينمائية يتوهج فيه الحنين والغموض والتوق والسر والالم مروان مروان ها ويبقى الالم ادري ادري كما في بعض الصور السريالية عين على عين حوراء كحيلة دامعة والمطر يضرب النوافذ ويترقرق سيولا على الزجاج والباب مفتوح او نصف مفتوح ثم ينغلق صامتا كباب سجن قديم لا تدري بانبراكين انتي تضطرب وراءه يبكي كعاشق لم يعتد البكاء وكل دمعة كالسكين في الجرح يا مروان وفجأة تملأ الشمس الدنيا وتزمر السيارات وتهدر مارقة خلال الغبار صائحة ها ويبقى الالم حتى في المشاهد النائية الفسيحة حيث البحر والمراكب والصيادون وحيث الغابة وآجام اتذهب تنضو عنها أوراقها لتكشف عن الوحوش التي داهمتها رياح الخريف « ففرّت معها الملائكة وهي تصيح ها ويبقى الالم اف لا ليس هذا ما اردت ان اقوله فلاقلب الشريط .

اتساءل هل اريد الموت أنا ايضا ولكنني اعرف الجواب منذ زمن طويل ولم تبق ضرورة تلوفلفة المسرحية آخذا جمجمة يوريك بين يديّ وجماجم اخرى تقذف بها مسحاة الحفار كل لحظة لاتذكر ان الضحك كله والجمال كله والمرونة كلها ستلتهمها سيدتي المصون دودة وما همني من يلتهمها بعد اليوم وطريقي الصحراوية لا تنتهي ولا اريدها ان تنتهي فهي اروع من الرؤوس كلها والعيون كلها والشفاه كلها كما كان يقول ابراهيم عندما اكتشف وزجاجة العرق بين يديه ان الحياة احلام ثم قال بل كوابيس لانه تذكر المرأة التي رآها تطير اشلاء في لحظة انفجار القنبلة لا لذنب جنته وركز عينيه في الزجاجة والكلمات كالضجيج بين شفتيه المتمردتين قائلا كلنا انذال وفلت واوفيليا قال واوفيليا وان كانت اشرف مني ومنك لانها في عالم من الانذال والخونة استطاعت على الاقل ان تنتحر ولكن الحياة تبقى اهم منها ومني ومنك اهم من الرؤوس البديعة والعيون الواسعة والشفاه العريضة كان دائما يناقض نفسه وكنت احسب انني اكثر منه انسجاما مع منطقي الى ان الى ان اف لا اريد ان اذكر ذلك وهكذا بضربة واحدة انقصم الظهر وطار المنطق وتهشم العالم وانتهى وليقل ابراهيم ما يشاء عن اهمية الحياة بين حشود الانذال والخونة وسط تزوجة الوحل والاسن ووجه شهد كالجوهرة كتفاحة المجانين وهي تعرض لي حلمتيها واحدة واحدة كنذيرين بالثواب والعقاب التقمهما واجن وهي ترفع تنورتها اكثر فاكثر لتقنعني بان لها اجمل فخذين على ضفاف دجلة منذ ان اخفقت عشتار في اغراء كلكامش وانا القرد المشعر في صدري صرخة الغابات الاولى تتصاعد الى حنجرتي فاذيبها كلمات من لبن وعسل وحضارة ورقة لا تحتاج الا الى موتسارت ليلحنها لكي تغنيها زرلينا وبيني وبينها هذه الصحراء الطويلة العريضة واغار من يدي لانها فعلت ما فعلت واحست ما أحست وقلت لو استطيع ان اصنع الاحاسيس اللذيذة في صندوق مخملي لشعشعت كالماس في ليل بهيم في عالم من البهائم يقرطون الحصى ويلعبون بخصيهم فيما عدا جواد حسني ياتيني كل يوم بقصة واعلم ان حبه هو الوحيد الذي لا يحتمض ولا استطيع ان اقنعه بان توازني قد تدمر ورجحت فيّ كفة الظلام والبهائم ما هذا لعله صقر لا غراب او حداة تحوّم النسور في سماء الوديان العريضة بين جبل وجبل لا تكاد الشمس تنخفض حتى ينطلق نسران او ثلاثة واذا هوت على طير او حيوان لا هذا غراب اكيد هذه غربان تختصر العمر كله من اقاصيص كليلة ودمنة وحكايات لافونتين الى وقائع الجثث التي ملأت الارض حية كانت

ام ميتة وافعم النتن منها الخياشيم وازكم انوف اهل الفضيلةواهل الرذيلة معا ولكن كيف تميزهم أبانوفهم المعقوفة كالسيوف هاها أبآذانهم المسطحة كالمناسف ها ها أبيراطمهم المدوّرة كفتحات البواليع وهذا غراب آخر واخر غراب غراب أينما أنظر لا ارى الا الغربان فظيع ضرب الزجاجة كيف لو تحطمت أهي رائحة الموت تحملها حتى ريح الصحراء كريح المستنقعات قالتها بلهجة ادهشتني انت بطة برّية ما انذي تفعله بين هذه الطيور النفيدة في المستنقعات اهرب أيها البطة البرية أهرب أهرب قبل ان وضحكت انا من شاعريتها وقلت اين أهرب فانت أهرب أينما يأخذك جناحاك وكتبت ذلك فيما بعد بخط انكليزي أنيق في رسالة وعنونت الغلاف تو ذي وايلد دك وسلّمتني الرسالة من سيارتها وانا واقف على الرصيف وانطلقت بالسيارة وهي تقول اهرب قبل ان يفوت الاوان وفات الاوان دائما يفوت الاوان دائما نصل متاخرين ونقع متاخرين حيث لا يفيدنا طيران ولا اجنحة وتفزونا الغربان في وضح النهار وحلكة الليل لا فرق لا فرق لا فرق لا لا لا لا قبل عشرين عاما كنت اقولها بكبرياء وقبلها بعشرة اخرى كنت اقولها بفرور وعناد والان اقولها بغيرما اكتراث ولكن جذورها في الصدر والكبد والاحشاء ولا يهمني من يسمعها فالممثل ما عاد يهمه من هم هؤلاء الجالسون في القاعة بل لا يهمه ان كانت هناك قاعة ما دام هو في وسط الخشبة يطلق صرخته في رحم الظلام قبل ان ينسدل الستار وتأتي شهد عبرالفرات وعبر البادية لتلقى حبيبها وهو يقذف بالكلمات في رحم الظلام الانثى التي تحبل بالمستحيلات وتحتفظ بالبوم والغربان والبلابل بين فخذيها الزنجيين حتى ساعة القذف والموت واحسان ما زال يناقش ابراهيم ولسانه يكاد يعجز عن الحركة في فمه ويده ترتجف كيد ابراهيم وقد بلغ ذروته اذ صاح وعيناه مترعتان بالدموع كلهم خونة كلهم خونة ولم يبق له بعد ذلك الا التهبوط الى مهاوي وافعه الذي هو كابوسه اللامنتهي حتى مقدم ليل اخر وظلام اخر وانثى اخرى بين فخذيها اللذة والرعب والموت يوما بعد يوم كمسرحية ملودرامية بذيئة لا بد من تمثيلها الى ما لا نهاية والغربان تملأ الطريق ولا ارى في الافق الا الغربان وغابت الشمس ولم تصل بعد لست ادري متى ستصل مريا!!!! جيبي الفدا لأكله مع مروان تحت الزيتونة الكبيرة وانام على التراب الاحمر ورأسي على صخرة

وانا رايح ومروّح ومنقي درب القبليه

الى ان تصل شهد وتقف فوق رأسي وترفع تنورتها لارى كل ما عندها وينهمر عليّ ضحكها كالبكاء تركب افكاري كفارس شبق وتلكزها في اتجاه اهوائها لا لا لا ليس هذا ما اردت أن اقوله ولو انني اردت ان اقول بعض اذن متى اين قول ما أريد قوله وكل ما قلت ما هو الا الحواشي والمتن ضائع فلاجرب مرة اخرى ربما على طريقة الفلاسفة بأن أحدد السؤال وليكن الجواب ما يكون من جبل خريطون اتى عين سفني حيث انفجرت المياه وبدأ الطوفان ولم يجد نوح من يسعفه في صنع سفينته وغرق الانسان وكل ما صنع زوجا زوجا أماه كيف تنقذين اولادك هذه المرة الا بكبريائك الرائعة التي وزعتها عليهم جزافا لا نخشين الاسراف لان الكبرياء كان مملكتك الوحيدة وعنادك يفتت الحجارة ويجفف البحار ويملأ الجبال ينابيع مهما قلت وكيفما قلته وجواد يكتم دهشته لكثرة من عرفت من النساء باحثا عن تلك التي لها عنادها وكبرياؤها ويزعم انه ما عاد يفهمني وانا الذي ما فهمت يوما احدا فلاجرب أن أحدّد السؤال ».

بغداد **جبرا ابراهيم جبرا**

# البديل

تأليف الفيلسوف الفرنسي الشهير

**روجيه غارودي** ترجمة جورج طرابيشي

هذا آخر كتاب ألفه الكاتب الماركسي الفرنسي الكبير روجيه غارودي ، وهو ينطلق من السؤال التالي: ما هي الاشياء التي تفضحها الشبيبة ، وما هي الاشياء التي تبشر بها ؟ انه يتوجه الى الشبيبة اذن ، اي الى جميع الذين يعتقدون ان حياة الانسان ليست مصنوعة فقط لكي تقبل او تلعن، بل لكي تبدأ وتخلق. وسيكون بالامكان ان يبلغ هذا الكتاب هدفه اذا ساعد البعض على ان يعوا المأزق ويحاولوا الخروج منه . فاذا استسلمنا لانحرافات الحاضر المفجعة ، فان الانسان ومحيطه سوف يدمران خلال ثلاثين عاما ، بحيث لا يكون ثمة وقت للعيش ...

ان يعي الانسان الممكن ، هو ان يبدل مفهوم السياسة نفسها ، وليس هو الاعتقاد بوصفة ما سحرية تنقذنا من « الخارج » ، بلا مشاركتنا الشخصية . ليس ثمة تحرير ممنوح ، بل ثمة نار يمكن ان تشتعل . وقد تنطفيء هذه النار اذا لم يكن ثمة انسان مصمم على تغذيتها بأفضل ما في نفسه ووجوده .

واذن ، فان هذا الكتاب التزام : التزام بالنسبة لمن كتبه ، والتزام بالنسبة لمن يقرأه .

ويقول غارودي : لقد كنت مجبرا على كتابته لاظل امينا للحلم الذي كان يراودني وانا في العشرين . فهو يمثل في حياتي انقطاعا وتكملة في آن واحد، استئصالا وتأصيلا جديدين للجذور . »

**صدر حديثا** **ثمن النسخة ٥ ل . ل**